

المحاضرة الأولى

التطور التاريخي والمؤسساتي للمهنة عبر العالم (من ظهور القيد المزدوج إلى معايير IFRS)

تمهيد:

إن مهنة المحاسبة ليست مجرد تقنية حسابية ثابتة، بل هي كيان مرن تطور عبر العصور استجابة لتعدد العلاقات الاقتصادية وظهور الحاجة إلى "الثقة" بين الأطراف الفاعلة.

1. ماهية المهنة في السياق الأكاديمي والعملي

يرتبط مفهوم "المهنة" (Profession) "تاريخيا بنوع من العمل الذي يتطلب مهارات فكرية متخصصة، وتكويناً علمياً طويلاً الأمد، والالتزام بمبادئ سلوكية صارمة.

وفي الحقل المحاسبي، لا تخرج المهنة عن هذا الإطار، بل تزداد تعقيداً نظراً لحساسية المعلومات التي يتعامل معها المهني.

1.1 تعريف المهنة لغة واصطلاحاً:

لغة: هي "الحق بالخدمة والعمل"، وتطلق على كل من غلب عليه عمل ما حتى عرف به، وهي تدل على المهارة والتمكن (سالمي، 2026، ص 4).

اصطلاحاً: هي ممارسة نشاط يتطلب كفاءة فنية عالية، معترف بها من قبل هيئة مهنية، وتهدف إلى تقديم نفع عام (لصنوني، 2022، ص 5).

كما تمثل مجموعة من المعارف والمبادئ والتقنيات التي يكتسبها الفرد عبر تعليم متخصص، وتخضع لقواعد أخلاقية تضمن استقلاليتها (خليفاتي، 2023، ص 8).

2.1 تعريف المحاسبة كمهنة:

تعرف بأنها تلك الخدمة التي يقدمها شخص طبيعي أو معنوي (خبير محاسب، محافظ حسابات، محاسب معتمد) بصفة مستقلة، تتضمن مسك، فحص، تقويم أو تدقيق الحسابات للغير، وإبداء رأي فني حول مدى صدق القوائم المالية وسلامتها (خليفاتي، 2022، ص 6).

يعد التمييز بين المحاسب "الأجير" والمهني "المستقل جوهريا، فالمحاسب "الأجير" هو موظف داخل المؤسسة تربطه بها علاقة تبعية قانونية وأجر، بينما "المهني المستقل" (خبير محاسب، محافظ حسابات، محاسب معتمد) يمارس مهنة حرة منظمة قانونا، ويخضع لرقابة المنظمات المهنية (سالمي، 2026، ص 5).

إن استقلالية الأخير هي الضامن الوحيد لتقديم تقارير مالية ذات مصداقية أمام الأطراف الخارجية كالبنوك، إدارة الضرائب، والمستثمرين (بوايز، 2025، ص 755).

2. الجذور التاريخية وتطور الممارسة:

مرت المحاسبة بمراحل مفصلية، بدأت بمرحلة "المحاسبة التقديرية" في الحضارات القديمة، وصولا إلى الثورة العلمية في القرن الخامس عشر بصدور مؤلف عالم الرياضيات "luca Pacioli" عام 1494 الذي وضع حجر الأساس لنظام القيد المزدوج.

ومع حدوث الثورة الصناعية وانفصال الملكية عن الإدارة في الشركات المساهمة، برزت الحاجة لتدقيق خارجي مستقل يضمن مصداقية القوائم المالية، وهو ما أدى لظهور أول جمعية مهنية منظمة في اسكتلندا عام 1854 تحت اسم "معهد المحاسبين القانونيين" (خليفاتي، 2022).

يمكن اختصار هذا التطور في المراحل التالية:

1.2 الجذور القديمة (قبل 1494م):

في الحضارات القديمة، ارتبطت المحاسبة بسلطة الدولة والمعبد. في بلاد الرافدين ومصر القديمة، كان "المحاسب" موظفا عموميا يسجل الجبايات والواردات. إلا أن هذه المرحلة افتقرت لنظام "التوازن" الرياضي، حيث كان التسجيل يتم بشكل وصفي أحادي الجانب. (Belkaoui, 2004)

2.2 عصر النهضة وولادة نظام المعلومات (1494م):

يمثل عام 1494م البداية الحقيقية للمحاسبة كعلم منظم حيث قام العالم الإيطالي (Luca Pacioli) بنشر مبادئ "القيد المزدوج" التي كانت تمارس في البندقية، حيث شهدت مهنة المحاسبة تحولا جذريا انتقلت فيه من مجرد أداة جرد مادي للممتلكات، لتتحول إلى نظام متكامل قادر على قياس النتيجة بدقة وتحديد مركز الذمة المالية للكيان التجاري.

وفي هذا السياق التاريخي، يشير كل من (Needles & Powers, 2013) إلى أن جهود (Luca Pacioli) تمثلت في قدرته على تقنين النظام (Codification) ووضعه في إطار علمي ومنهجي، هذا التقنين هو ما وفر للتجار لغة مالية موحدة مكنتهم من مراقبة وإدارة عملياتهم المعقدة بدقة متناهية.

3.2 الثورة الصناعية وانفصال الملكية عن الإدارة

أدى اندلاع الثورة الصناعية وظهور الشركات المساهمة في القرن التاسع عشر إلى تعقيد المشهد الاقتصادي لدرجة لم تعد معها التقنيات التقليدية كافية، حيث تسبب انفصال الملكية عن الإدارة في بروز "مشكلة الوكالة" وفجوة معلوماتية حادة بين المالك والمسير، مما استوجب تحول دور المحاسب من مجرد "ماسك دفاتر" إلى "مدقق مستقل" لسد هذه الفجوة وحماية حقوق المساهمين. وقد تركز هذا التحول قانونيا ومؤسساتيا في بريطانيا، حيث فرض قانون الشركات لعام 1845 ضرورة فحص الحسابات بواسطة مدققين مستقلين (Watts & Zimmerman, 1986)، وتزامن ذلك مع إضفاء طابع "المهنة الحرة" على هذا النشاط بتأسيس أول جمعية محاسبية عام 1854، وهي الخطوة التي أرست القواعد الأولى لمهنة التدقيق القائمة على الترخيص والالتزام بالأخلاقيات المهنية كما نعرفها اليوم.

4.2 الكساد الكبير وبروز مصطلح "التقييس" المحاسبي (1929م - 1973م)

أثبت انهيار بورصة نيويورك عام 1929 أن "الحرية المحاسبية" المطلقة وتعدد الاجتهادات الشخصية تؤدي حتما إلى تضليل الأسواق وفقدان الثقة في البيانات المالية، مما دفع الحكومة الأمريكية للتدخل القانوني الحاسم عبر إنشاء هيئة الأوراق المالية والبورصات (SEC)؛ وهي الهيئة التي فوضت لاحقا القطاع المهني لإعداد صياغة موحدة للمبادئ المحاسبية المقبولة عموما (GAAP) لضمان الشفافية والموثوقية (Belkaoui, 2004)، ومع تزايد العولمة في السبعينات، انتقل هذا الزخم نحو التحول العالمي، مما أدى إلى إنشاء لجنة معايير المحاسبة الدولية (IASB) عام 1973، والتي تطورت لاحقا إلى مجلس معايير المحاسبة الدولية (IASB) بهدف صياغة لغة مالية موحدة وعابرة للحدود تضمن قابلية المقارنة بين الشركات دوليا (Nobes & Parker, 2020).

وفيما يلي التسلسل الزمني لتطور التقييس المحاسبي العالمي:

- أزمة الكساد الكبير 1929: انهيار بورصة وول ستريت الذي كشف عن غياب المعايير الموحدة وتقشي التلاعب بالبيانات المالية؛
- تأسيس هيئة (SEC) 1934: إنشاء هيئة الأوراق المالية الأمريكية لضبط السوق، وفرض أولى القواعد المنظمة للإفصاح المالي؛
- نشأة لجنة (IASB) 1973: تأسيس لجنة معايير المحاسبة الدولية كأول خطوة حقيقية لتوحيد الممارسات المحاسبية بين الدول؛
- ظهور مجلس (IASB) 2001: التحول إلى مجلس معايير المحاسبة الدولية وإطلاق معايير (IAS-IFRS) لتصبح المرجع العالمي الأول.

3. جهود المنظمات الدولية في تنظيم المهنة: لم تعد المهنة مجرد ممارسة محلية، بل أصبحت محكومة بأطر دولية تضمن "لغة مالية موحدة"، وتتمثل أهم هذه الجهود في:

1.3 الاتحاد الدولي للمحاسبين (IFAC) : تأسس عام 1977 بهدف تعزيز المصلحة العامة وتطوير معايير مهنية عالية الجودة. يشرف الاتحاد عبر مجالسه المتخصصة على إصدار قواعد السلوك الأخلاقي للمحاسبين المهنيين، ومعايير التعليم المحاسبي الدولية (IFAC, 2024).

2.3 مجلس معايير التدقيق والضمان الدولي (IAASB) : بصفته هيئة تابعة للاتحاد الدولي للمحاسبين، يتولى إصدار معايير التدقيق الدولية (ISA) .

تهدف هذه المعايير إلى توحيد منهجية الفحص والرقابة عالمياً، وقد تبنت الجزائر هذه المعايير رسمياً من خلال إصدار "المعايير الجزائرية للتدقيق" (المجلس الوطني للمحاسبة، 2016؛ IAASB, 2022)

3.3 مجلس معايير المحاسبة الدولية (IASB) : يضطلع بمهمة إصدار معايير الإبلاغ المالي الدولية (IFRS/IAS).

تهدف هذه الجهود إلى تحقيق الشفافية والموثوقية في القوائم المالية، وهو الإطار الذي استلهمه المشرع الجزائري عند صياغة النظام المحاسبي المالي.